بَدْرُ المحدِّثين

قصة بقلم

أحمد الجوهري عبد الجواد

أسرعت القابلة بالبشرى إلى الأب الذي ينتظر في صحن الدار متلهفًا، وهي تصيح: بشراك يا سيدي بشراك!

أتاها صوت الأب: بشري عنهما بشرك الله بكل خير!

- أبشر فالأم بخير والبنية كالقمر!

تهلل وجه ((أحمد)) بالسرور وعاد إلى وجهه لونه بعدما كان تكدر بألوان شتى خوفًا على زوجه التي جاءها المخاض وطال عناؤها في الغرفة مع النساء، وكان لسانه لا يكل من الدعاء لزوجه ومولودها بالسلامة.

- الحمد لله، وشكر الله لك.

- ماذا تسميها إن شاء الله!

- أسميها كريمة.

قال هذه الكلمة ثم ذهب بخاطره بعيدًا وهو يتابع كأنه في حلم: فما زال كرم الله علينا واسعًا وعظيمًا منذ حلت بنا ونزلت وأسأل الله أن يجعلها من أهل الكرام، ثم رفع رأسه يدعو:

"اللهم أكرمنا وإياها بكرمك، واجعلنا من خدام دينك"!

ثم التفت فجأة إلى القابلة التي وقفت تؤمن على دعائه وقال:

- هل يمكنني أن أطمئن عليهما؟

- نعم سيدي تفضل!

تقدم بخطواته الهادئة الخاشعة إلى الغرفة التي ترقد فيها زوجه ولسانه لا زال يلهج بالذكر والدعاء حمدًا وشكرًا ومسألة لربه، وما إن وقعت عيناه على زوجه وابنته حتى خرَّ ساجدًا لله يشكر الله على عطائه ومنِّه بالعافية لزوجه وبالحياة لابنته التي رآها فرأى في وجهها البدر حين تمامه.

.....

ترعرعت ((كريمة)) بين والديها في سعادة منهما بها إذ كان ذكاؤها وفطنتها يبهرانهما ومن حولهما يومًا بعد يوم، ودخلت الكُتَّاب فحفظت القرآن الكريم وهي بنت سبع سنين وكانت بمثابة مركز الدائرة من معلِّميها، وبعد أن أجازوها في القرآن، طاف بها والدها على شيوخ الحديث في بلدها تسمع منهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جمعت ما عندهم من العلم في وقت قصير، وكان والدها سعيدًا وتتجدد سعادته كلما أوصاه أحد شيوخها بأن لا يقصِّر في تكملة ((كريمة)) مشوار الرِّواية، وكان يؤكِّد على القول بأنها مستمرَّة وأنَّه داعمها بمشيئة الله تعالى راجيًا الله أن يتقبلهما خدَّامًا لدينه، حملة لحديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد استجاب الله دعاء الوالدين الكريمين في ابنتهما وأجابهما بحسن نيتهما ونيتها فرزقهم الهمة والعزم ووفَّق لهم أولي العلم والفضل، وسدد طريقهم ورشَّد سبيلهم، وزادهم أن جمعت ((كريمة)) إلى الحديث فِقهَه.

عاشت ((كريمة)) حياتها تحفظ وتروي وتتعلم وقد وصلت نفسها بسبب من أئمة الحديث الكبار كالبخاري ومسلم وأصحاب الكتب الستة وغيرهم من أصحاب المسانيد والسنن والمجاميع وغيرها من كتب السنة المطهَّرة، كل ذلك ترحل إليه من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر في مشارق الأرض ومغاربها.

.....

تقدَّمت السنُّ بكريمة وكان أبواها يلاحظانها تشبُّ وتصل إلى منتصف عقدها الثالث يشغلهما كثرة الخطَّاب الذين يطرقون بابهم وهي معرضة لا تجيب منصرفة لا تلتفت، والناس لا يملون من القول: نريدها زوجة لابننا فمثلها لا تترك ولا تعوَّض.

كان والدها يتحدَّث إليها في هذا، وكذا كانت تفعلُ أمُّها وكانت كريمة تجيبهم في صراحة بأنها لا ترغب في الزواج الآن، وأنها في شُغُل عن ذلك، وتعدهم بأن تفكِّر في هذا لكنها تريد أولًا أن تستكمل عدتها وتروي ظمأها من العلم، فلا يسع أبويهما إلا أن يسكتا عنها مدة، ثم يعاودانها بالكلام في ذات الأمر بعد وقت فتعود هي لما أجابتهما به قبل ذلك، وهكذا حتى كان يوم من الأيام فاجأت ((كريمة)) والديها بطلب عجيب.

جلست ((كريمة)) في ذلك اليوم مع والدَيها فكلَّمَتْهُما عن المسجد الأقصى وما ورد في مكانته وفضله وفضل زيارته من الآيات والأحاديث والآثار، وختمت ذلك بطلبها من والدها أن يرافقها لزيارة المسجد الأقصى.

.....

لم يَعجب والداها من طلبها ذاك لعلمهما بحبها للرحلة في طلب الحديث إلى كل مكان فكيف بمكان كهذا الحرم الثالث وأولى القبلتين في الإسلام، ولم يؤخر الوالد جوابها عن طلبها فأجابها سريعًا إن سيُعدُّ العُدَّة لهذا الأمر ويرتبه، ولها أن تطمئن بالانصراف إلى مباشرة أعمالها ومشاغلها وهو يدبّر لذلك بمشيئة الله وتوفيقه.

أقبلت ((كريمة)) على العلم بنفس شغوف يحدوها الأمل في رحلة جديدة في طلب الحديث وسماعه وأيضًا هي رحلة تختلف عن غيرها من الرحلات فهي إلى بيت المقدس، وكان والدُها في هذه الأوقات يرتِّب للرحلة حتى استوفى ما أراد من ترتيبات ثم جاء يبشرها بوقت الرحيل فجهزت نفسها وكثفت من

عقد مجالس التحديث لبني بلدها، وفي اليوم الموعود ودعت شـــيوخها وطلابها وخرجت إلى غايتها المحبوبة وأملها المرتقَب.

سارت القافلة بهم وحطت حتى وصلوا إلى مدينة القدس الشريفة فنزلت ((كريمة)) تبث البيت والصخرة وما حولهما أشواقها فنعمت في مدينة السلام إقامة وبالمسجد صلاة وبمن فيها من العلماء سماعًا ولقاء وسمعت من محدثيها وناقشت فقهاها، فلا تسل عن إعجابهم بها وترحيبهم بوجودها وسعادتهم الغامرة برؤية مثلها في علمها الواسع وأدبها السامي وهمتها العالية.

وبعد أيام وأيام قررت الأسرة الرحلة إلى البلد الحرام، وهناك كانت حديقة ((كريمة)) الغناء وبستانها العامر بكل الزهر والورد من جميع الألوان؛ إذ التقت هناك أئمة الإسلام وعظماءه من كان منهم مقيمًا أو مجاورًا في البلد الحرام أو حاجًّا إليها من أيّ مكان وكانت شهرتها قد سبقتها، فتهافت الشيوخ والعلماء يحملون عنها حديث أهل بلدها والبلاد المجاورة لها ومن لقيت من الكبار ويقارنون أسانيدهم بأسانيدها، ولم تخل لحظة في رحلتها من فائدة، فارتفعت همتها وسمت عزيمتها لأن تفكر في إطالة رحلتها أكثر ما تستطيع من الأوقات وكم تمنت لو سمح لها والدها بالبقاء هنا في جوار البيت الحرام فقضت حياتها كلها إلى جواره تأنس إليه وتجاور عنده، غير أنها حدثت نفســها بأن ذلك الأمل ليس بالســهل تحققه، لكنها سألته ربها تبارك وتعالى في سجودها عند البيت، وفي أخريات أيام رحلتهم تحدثت إلى والدها برغبتها وفوجئت بوالدها يوافقها الفكر ويشاركها العزم، فسعى لترتيب أموره ليقيم هنا في مكة في البلد الحرام، وقد وفقه اللهم لذلك وهيَّأ لهم الأسباب كلها ويسَّرها لهم، وكانوا من سكان البلد الحرام، ومن وقتها بدأت مرحلة جديدة في حياة ((كريمة)) التي لم يلقها أحد من شيوخها إلا قال: لست ((كريمة)) بل أنت ((أم الكرام)).

***

جاورت كريمة في الحرم وجلست في صحن الكعبة، وتقدم بها العمر، وانشغلت بالعلم والعبادة تبث علومها في الطلاب وتهرع حينما تعلم بوجود زائر جديد يحمل من الحديث ما ليس عندها، وكانت الوفود تأتيها من كل ناحية تطلب حديثها حتى إنَّ العلماء الكبار في نواحي العالم الإسلامي رحلوا إليها، وكانت تشتهر برواية صحيح البخاري وإسماعه وبلغت فيه حدّاً لم يبلغه غيرها؛ إذ أخذته بإسناد عالٍ، مصحَّحًا، عن شيوخ خراسان، وقد حافظت كريمة على ضبط الصحيح وكذا جميع مروياتها من الحديث فكانت إذا روت قابلت بأصلها، وتمكنت خلال إقامتها بمكة من إقراء "الصحيح" مرات كثيرة، في أيام الموسم وغيرها، وقد صارت نسختها من الصحيح من بين أوائل النسخ المعتمدة بين طلاب الحديث في العالم، وبقيت يحفُّونها ببالغ الإكرام، حتى إن من الأئمة من أوصى تلاميذه بألا يأخذوا (صحيح البخاري) إلا عن ((كريمة)).

وما عالمٌ جالسها وأخذ عنها إلا وعاد يرشِّحها لإخوانه وطلَّابه ليفدوا عليها ويسمعوا منها.

وقد تأملت يومًا في أخبارها فهيَّجت سيرتها وأخبارها مني الفؤاد، فشعرت أني جلست بتجرُّد من ا العالم حولي أرسل إليها رسالة، وشعرت من قلبي أنها تصلها بحروفها، وها أنا أثبت لكم هذه الرسالة هنا بروحها التي كنت كتبتها بها، دون تبديل أو تغيير، لتكون وفاء لها رحمها الله وأنار قبرها، ولتكون كذلك رسالة إلى (كل كريمة) تطلب العلم اليوم وتُؤثره على كل شيء، لتتعرف من خلالها على سِيَر قدواتها العظيمات في التاريخ، وما هنَّ بالقليل.. وهي رسالة أيضًا للآباء والأمهات.. ليعتنوا في تعليم العلم الشرعي بالبنات كما يعتنون بالبنين.

***

رسالة إلى ((كريمة))

غاليتي كريمة، أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي وأسلم على رسوله المصطفى ونبيّه المجتبى وبعد، فأحييك بتحية الإسلام:

السلام عليك ورحمة الله وبركاته، وأدعو الله عز وجل أن تكوني بخير مكان وحال، فمنذ سنين عديدة حين حللتِ بهذه الحياة أنرتِ الدنيا وأشرق بك وجهُها، وكنت كمن تسطر بحالها قبل مقالها أن لها في هذه الحياة شأن ولها مع الله حال، وكذلك قد كان.

وحين ترعرعتِ – يا أخيَّة - شابة تدور في حياء وستر بين حلقات العلم المختلفة وحبِّب إليك حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلتِ عليه بكل جوارحك وأعطيته كلَّ وقتك واستنفدتِ فيه كل طاقتك وبذلت فيه كل جهدك حتى شهد من بين المشرق والمغرب ببراعتك .. لم تكوني تخرجين عن ذلك النمط الذي اختير لك لتشرق الدنيا ببهاء جهودك وتستنير الأرض بروعة أعمالك.

هل علمت بما قال منصور حين عاد من الحرم ورأى من علمك وعرف من فضلك وسمع من حديثك.. ماذا قال لولده وأهل حلقته؟

لقد ذكرك لأهل الفضل والخير ثم رفع عقيرته يسمع الناس: وهل رأى إنسان مثل كريمة؟

وهل نقل إليك الكرام يا غاليتي ما حدث به العالم الكبير أبو الغنائم النرسي، بالذي كان منك له وما كان منه لك في العلم بمرأى ومسمع من الناس عند الحرم في مجلس الحديث؟ لقد أخبر بذلك وحكاه حين عاد إلى طلابه كأنما كان يحدث ويقع وهو يحكيه، قال: أخرجَت كريمة إليَّ النسخة "بصحيح البخاري" فقعدت بحذائها، وكتبت سبع أوراق، وقرأتها، وكنت أريد أن أعارض نسختي على نسختها وأقابلها وحدي، فقالت: لا، حتى تعارض معي.. فعارضت معها.. ثم قال : وقرأت عليها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.. يا لهمتك في العلم كما هي في العبادة!

لله أنت، يا عزيزتي، كم هي طيبة أعمالك وكم هي عظيمة نافعة جهودك، فأي شيء منها أعدِّد وما منها أوثره هنا بالذكر؟

إنَّ اختيارك الحرم يا ((كريمة)) لتجاوري عنده زاهدة في جميع متع الحياة الدنيا لم يكن هباء ولا عبثًا، ولعل الحرم اختارك قبل أن تختاريه وناداك قبل أن تناديه، والظن بأنك لم تفارقيه إلى يومنا هذا بموعود النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.. فلعلك هناك عند البيت المعمور المسامت له.

وأحب أن أنهي إليك أن أحوالك وأخبارك تصلنا، فكل من لقيك هناك من العظماء والثقات وأبناء الخير والصلاح قد طمأننا على حالك الطيب وحدثنا بأخبارك ومقالاتك العذبة وأروانا وأروى الدنيا من أخبارك وأحاديثك، فلله درك حين انتفعت بلقياهم وانتفعوا بك وتخرجت عليهم وتخرجوا عليك واستمر النور في الدنيا بسببك وحبلك حين أخذته ممن سبقك وأعطيته من لحقك.

أسـأل الله أن يجعل لك بذلك كله أجرًا وافيًا ورزقًا طيبًا وفردوسًـا عاليًا وصـحبة بمن تعلقتِ بكلامه وحفظتِ جميع أقواله ونقلت إلى الدنيا عبير حديثه، جمعك الله وجعلك رفيقة للمصـطفى في الجنة.. تسـمعين حديثه عن قرب وترين وجهه الأنور عن كثب كما كان حرصـك على حديثه بالحرف بل بالشكل.. آمين ومن قال: آمين.

غاليتي كريمة!

من قال إنك حين تخليت عن الزواج إيثارًا للعلم قد انتهى ذكرك أو انقطع برُّك، هأنذا أكتب إليك وأذكرك وأنا واحد من بين مئات الألوف يرددون اسـمك، كلهم عارف بشـأنك مقدّر لمنزلتك ذاكر لفضلك..

نعم مرَّت هذه السنوات الطويلة ولكن ذكرك باق بيننا لم يفارقنا، وبهاء طلتك بمجالس الحديث باقية لا تفنى، يذكرك أهل الخير بأحسن الذكر ويثني عليك الصـالحون بأطيب الكلم، فلله درك، ما أكثر ما أقام

ربي فينا من آيات إخلاصك، ولئن فارقتنا بالجسد فتلك الروح باقية وما أجمل أن يكون الذكر مرتبطًا بحديث المصطفى إن يذكر حديثه تذكرين، فأي خير أنت مقيمة عليه وما زلت وعملك الصالح قائم بهذا لم ينقطع، وأي شرف فوق أن كنت وما زلت حلقة في سلسلة أولها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

لن أستفيض في حديثي فأشغلك عما أنت فيه -إن شاء الله- من نعيم ، ولا أخبرك بشيء أنت إن شاء الله أعلم به مني، حين ترفع إليك أجوره وثوابه فتسألين ربك: بم هذا؟ فيقول لك: هذا باستغفار أهل الحديث في بلد كذا –وكل لحظة يصعد إليك الأجر من بلد-، أو يقول لك: هذا بإقامة إمام أو عالم على خدمة شيء من آثارِك ينفع به الناس –وفي كل وقت ينفع بشيء منها عالم وإمام وينتفع بها ألوف إن لم أقل: ملايين-!

فطيب الله في جنة الخلد مقامكِ، ورفع الله في الفردوس محلك ومكانك، وأنزلك منه سبحانه خير منزل وأكرمك بأعظم كرامة!

لله أنت ولله والد أدبك ورباك وعلمك وساعدك، ما زالت الدنيا تذكر رحلته بك إلى بيت المقدس والعودة بك إلى جوار الحرم كأنما حدثت الساعة، فسلام عليه في العظماء والأخيار..

وسلام عليك يا ((كريمة)) في الخالدين، سلام عليك يا مروزية..

سلام عليك أيتها الشيخة العالمة.. سلام عليك يا معلمة الأئمة وقدوة نسائنا في الخالدين.. سلام عليك يا ((أم الكرام)) ورحمة الله وبركاته.. والموعد الله في دار السلام.

***

يقول الراوي: عاشت كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية بقية عمرها إلى جوار الحرم، تحدث في صحن الكعبة، وبارك الله علمها وطلابها ومدَّ في عمرها فعاشت مئة سنة وماتت راضية

مرضيَّة ممتعة بعقلها وفهمها، حاضرة معرفتها وافر خيرها وبرُّها مكثرة من التعبُّد لربِّها، وقد نسيت وسط هذه الأشغال كلها أن تتزوج فتعوَّضت بلذَّة العلم عن كل ما سواه وماتت بكرًا لم تتزوج أبدًا في عام (463 هـ).

مرَّ بي اليوم ذكر العالمة العابدة الخيّرة، راوية صـحيح البخاري (كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية (ت 463 هـــ)، فهيَّجت مني الفؤاد لمراسلتها بهذه الكلمات، ولتكون رسالة إلى (كل كريمة) تطلب العلم اليوم وتؤثره على كل شيء، لتتعرف على سير قدواتها العظيمات في التاريخ، وما هن بالقليل.. وهي رسالة كذلك للآباء والأمهات ليعتنوا في تعليم العلم الشـرعي بالبنات كما يعتنون بالبنين.. قال الإمام أبو بكر بن منصـور السـمعاني: "وسـمعت بنت أخي كريمة تقول: لم تتزوج كريمة قط، وكان أبوها من كشميهن وأمها من أولاد السياريّ وخرج بها أبوها إلى بيت المقدس، وعاد بها إلى مكة، وكانت قد بلغت المائة - رحمها الله رحمة واسعة -".

أبو حفص أحمد الجوهري عبد الجواد